من روائع تراثنا :

غراس الأساس لابن حجر

مخطوطة ترى النور

تحقيق وتعليق الدكتور
توفيق محمد شاهين
بجامعة الأزهر

مخطوطة « غراس الأساس »، للامام الحافظ ابن حجر العسقلاني، تدل على حسٍّ لغوي دقيق، وتمكن بلاغي عميق، وبصر بالاستعمال اللغوي للفظة، وتدرجها في مواطن الحديث والأسلوب... أحس به وتمكن منه المحدث الفقيه، والأديب اللغوي ابن حجر رحمه الله.. فخطه يراعه من وحي علمه باللغة، وتذوقه لأفانين البلاغة، وفصيح العبارات والأسلوب..

والمخطوطة ــ بالتالي ــ تأييد علمي لما جاء في معجم (أساس البلاغة) للعلامة جار الله محمود الزمخشري، صاحب الصيت الساري، والنفع الجاري... وتعليق ذكي على ما عده الزمخشري من الاستعمالات المجازية في بعض الألفاظ.. وتأكيد علميّ على صحة ما جاء في « الأساس » العتيد والمشهور، والمعروف للقاصي والداني، والشادي والأديب... وأخيرا : هي نقض لمقولة ــ معوقة ــ بأنه ما ترك الأوائل للأواخر شيئا...

وإذا أضافت هذه المخطوطة لبنات كمال لأساس الزمخشري، فهي أمارة فهم وجمال علماء لابن حجر..

وقد قدمتها حديثا للمطبعة، لترى النور، بعد عناء نسخ، وتحقيق، وتمحيص، وتعريف، وتشكيل، وجهد كبير، تجد موجز وصفه في هذه المقدمة..

مؤملا أن يخرج الكتاب في صورة تناسب جلاله، وشرف موضوعه، في أخطاء نادرة، وموضوعية تحقق الأمل والنفع بفضل الله.. فإن عثرت ــ مع محاولة تجنب الخطأ ما أمكن ــ فمعذرة، وقد قال الشاعر :

من ذا الذي ما ساء قط
ومن له الحسنى فقط ؟!

* * *

حث الاسلام على العلم، ورفع درجة العلماء، وجعلهم ورثة الأنبياء، وأهل الثقة والأمانة،

وأصحاب الخشية من الله تعالى، يؤدون العلم للناس ــ كل الناس ــ ولا يكتمونه.

وقد أدى كثير من علمائنا ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ واجبهم تجاه الله سبحانه والانسانية، وأسهموا إسهاما إيجابيا في بناء صرح الحضارة الانسانية، ابتغاء وجه الله تعالى، وحب العلم والاسلام.

وبرغم الصعوبات التي واجهتهم في تعلم العلم وتعليمه، والتأليف والتصنيف، وبرغم انعدام الوسائل التقنية في زمانهم فإنهم ما قصروا في واجبهم ــ رغم المشقات ــ وماتوانوا في الاسهام البناء، لما فيه رفعة دينهم ورفاهية دنياهم، وسعادة الانسانية.

وبفضل الأقدمين من علمائنا نحن ــ ولله الحمد ــ من أغنى الأمم قاطبة بالمخطوطات العربية، أوصلها بعضهم من مكتبات الدنيا الشهيرة والمعروفة والمجهولة إلى الملايين.

وضاع على الانسانية الشيء الكثير من جراء الاعتداء التتري الغاشم على مكتبة بغداد العظيمة، وكذلك الاعتداء الهمجي على مكتبات الأندلس عقب خروج المسلمين منها، فضلا عن الكوارث الطبيعية، كذلك بسبب الجهل وسوء التقدير للكنوز العربية المخطوطة في تراثنا في دنيا المسلمين الواسعة.

وعلماؤنا بتأليف هذه الكنوز برهنوا للدنيا : أننا لسنا نقلة بريد، أو مقلدين لغيرنا، أو أن غيرنا يفوقنا عقلية وذكاء وهمة.. بل إن الدنيا لتشهد أن ثقافتنا كانت السبب في نهضة أوروبا والعالم الغربي، حين صحوا وغفونا، وحين جدوا واتحدوا وتكاسلنا وتفرقنا.

* * *

وكان معظم تأليف علمائنا على أسس منهجية سليمة، وتفكير متزن قويم، شهد بذلك المنصفون والمخلصون للعلم، على نحو ما يحكي الدكتور علي الخطيب في رسالة « تراثنا المخطوط » عن المستشرق (فوتيه كرايمر) حين يقول :

« إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جليا في حقل المعرفة التجريبية، ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين حين يلاحظون ويمحصون، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة، أو أخذوه من الرواية.... وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة وفكر وإبداع فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة في حقلي الرياضيات والفلك. وللسبب ذاته نجح العرب في التشريع، وفي وضع قواعد اللغة من نحو وصرف في شكل شامل محكم » ا هـ.

فلا عجب أن جاءنا منهم سيل من روائع المخطوطات حين لم تكن هناك مطابع. وقد جدّ علماء الغرب في البحث عن مخطوطاتنا والافادة والاستفادة منها ونشر روائعها.. وبقي أن يجد العرب والمسلمون في ذلك الصدد أكثر مما هو كائن، حين صحوا والتفتوا إلى تراثهم، والله خير معين.

ومخطوطة « غراس الأساس » ــ التي نحن بصدد الحديث عنها، وتحقيقها، والتقديم لها : ..إحدى روائع مخطوطاتنا، ومن أعلى نصوصها ؛ لأنها حملت عنوان الكتاب، واسم المؤلف، والاشارة إلى انتهاء الكتاب. وموضوعها جليل ؛ لأنه يتناول عملا قاموسيا معجميا لخدمة لغة الضاد، في نوع فريد من القواميس والمعجمات لم نألفه من قبل ولا من بعد. وهي من آثار علامة مازال ملء سمع الدنيا وبصرها ــ هو ابن حجر العسقلاني ــ، توثيقا واستدراكا لامام علامة يُكنُّ له المفكرون التقدير والاحترام، هو الألمعي : الزمخشري جار الله، رحمهما الله تعالى.

وسيجد القارىء الكريم في هذا التقديم تعريفا بالمخطوطة وقيمتها، وأهمية موضوعها، وبالامامين، وبجهدي المتواضع فيها.. وأسأل الله سبحانه أن ينفع بها، وأن يجعل ذلك في موازين عملي، وأن يلهمني السداد والتوفيق.

* * *

الامام الزمخشري وأساسه

هو إمام عصره : أبو القاسم محمود بن عمر ابن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، رحمه الله رحمة واسعة، وقيل له : جار الله ؛ لأنه جاور زمانا بمكة المكرمة.

ولد في 27 رجب سنة 467 هـ، في قرية زمخشر من أعمال خوارزم، وتوفي ليلة عرفة سنة 538هـ بها.

شُدّت إليه الرحال، وتتلمذ على كبار العلماء، حتى صار علما وإماما في : الحديث، والتفسير، والأدب، والنحو، واللغة، والبلاغة، والفقه، والأصول، والشعر، والرسائل، والأمالي النافعة في كل علم وفن. وله تلاميذه ومريدوه الأعلام..

ومن تآليفه القيمة الخالدة :

الكشاف في تفسير القرآن الكريم، والفائق في تفسير الحديث، ورؤوس المسائل الفقهية، والرائض في علم الفرائض، والمنهاج في الأصول، وشافي العيّ من كلام الشافعي، ومعجم الحدود، ومتشابه أسامي الرواة، وربيع الأبرار...

وله أيضا : المفصّل في النحو، والمفرد والمركب في العربية، والمحاجاة بالمسائل النحوية. والأنموذج في علم العربية.

وله أيضا : أساس البلاغة في اللغة، ولم يبلغ كتاب قبله في التمييز مبلغه، فصل فيه — لأول مرة — بين الحقيقة والمجاز.

وكذلك له : المستقصى في الأمثال العربية، والبدور السافرة في الأمثال السائرة، وديوان التمثيل، وشقائق النعمان في حقائق النعمان، ومقدمة الأدب في اللغة، وديوان الرسائل، وديوان الشعر والرسائل الناصحة، والقسطاس في علم العروض، والنصائح الكبار، والنصائح الصغار، وضالة الناشد... الخ

ومن نماذج شعره نلمس خلاله وصفاته، واعتداده بنفسه، وتضرعه إلى ربه، وسهره الليالي في طلب العلم :

يقول مادحا تفسيره الكشاف كتقرير حقيقة، لاكِبْراً :

إنّ التفاسيرَ في الدنيا بلا عَدَدٍ
وليس فيها لَعَمْري مثلُ كَشّافي

وينشد لغيره عند تفسير قوله تعالى : « إنّ اللّه لا يَسْتَحْيِي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَها » :(البقرة : 26)

يا مَنْ يرى مدَّ البعوض جناحَها
في ظُلمةِ اللّيلِ البهيم الألْيَلِ
ويرى عروقَ نياطِها في نَحْرِها
والمخَّ في تلك العظام النُّحَّلِ
اغفِرْ لِعَبْدٍ تابَ عن فُرُطاتِه
ما كان منه في الزمان الأوّلِ

وقيل : إنه أوصى بأن تكتب على لوح قبره.

وندرك سر نبوغه وحرصه على طلب العلم حين يقول :

سَهَري لتنقيح العُلوم ألَذُّ لي
مِنْ وَصْلِ غانِيَةٍ وطيبِ عِنَاقِ

وتمايلي طَرَباً حلَّ عَـريصَةِ
أشهى وأحلى مِنْ مدامَـةِ ساقِ
وصَريـرُ أوْرَاقي على أوْرَاقِهَا
أحلى مِنَ الدوكَـاهِ والـعُشَّاقِ
وألذُّ مِنْ نقْرِ الفَتَاةِ لِدُفِّهـا
نقْرِي لأُلقِي الرَّمْلَ عَـنْ أوْرَاقِي
آأبِيتُ سَهْرانَ الدُّجى، وتبِيتُـهُ
نوماً، وتبْغي بَعْدَ ذَاكَ لِحَـاقِي

الأساس : منهجه وميزته

معجم أساس البلاغة، للعلامة الزمخشري، له قيمة كبيرة في دنيا المعاجم العربية ؛ لانه هدف — بجانب التوضيح اللغوي للمفردات — إلى بيان ومعرفة الحقيقة والمجاز في الأساليب العربية. وهذا يعين على معرفة وجوه الاعجاز وأسرار البلاغة في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والنصوص العربية في أساليبها المتنوعة والمنتقاة. ويساعد على التمرس بتذوق البيان العربي بأسلوب عذب، ومحاكاة الأساليب الفصيحة في تعابير متنوعة أدبية.

يقول — رحمه الله — في مقدمة الأساس :

« ... ومن خصائص هذا الكتاب : تخير ماوقع في عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلّقين، أو ماجاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها من التراكيب التي تملح وتحسُنُ، ولا تنقبض عنها الألسن، كجريها رسالات على الأسلات، ومرورها عذبات على العذبات.

ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف، وتعريف مدارج الترتيب والترصيف ؛ بسوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بددا، ومتناظمة لا طرائق قددا.

مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية إلى مراشد حرّ المنطق، الدالة على ضالة المنطيق المفلّق ».

وترتب الألفاظ في معجمه هذا على طريقة الابجدية العادية : حسب الحرف الأول، مراعيا الحرف الثاني والابتداء به من أول الحروف الهجاهية : (الألف، والباء، والتاء، والثاء...) الخ.

وجرد الكلمة من الزوائد، وأرجع الكلمة إلى أصلها.

وذكر المعاني الحقيقية للمادة أولا، ثم ذكر المعاني المجازية للمادة ثانيا.

وبفصله المعاني الحقيقية عن المجازية امتاز معجمه على المعاجم السابقة عليه، وحقق الهدف من تأليفه.

وأتى بشواهده من أساليب القرآن الكريم، والسنة النبوية، وروائع الشعر ومنثور الأدب، ومأثور الحكمة والمثل.

وأخذ العلماء على الأساس : الاختصار الذي أدى إلى ترك بعض المواد أحيانا، وكذلك إطلاقه لفظ المجاز بعامة على كل الاستعمالات المجازية دون تفصيل. ولم يهتم بنسبة الأقوال إلى أصحابها شعرا أو نثرا إلا ما ندر.

وتبع الزمخشري في ترتيبه لقاموسه بعد ذلك قواميس أخرى، سهلت الأمر على المتعلمين والباحثين والعلماء، مثل :

المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي (770 هـ)، ومحيط المحيط للبستاني (1819 — 1883 م).

وأقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، للشيخ سعيد توفيق الشرنوبي (1839 — 1912 م).

والمنجد، للأب لويس معلوف اليسوعي (1867 — 1946 م). ومختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. وإعادة ترتيب الصحاح، للشيخ محمود خاطر. وكذلك المعجم الكبير،

والمعجم الوسيط، الذي صدر أخيرا عن المجمع اللغوي بالقاهرة.

فهو رائد المدرسة الأبجدية في دنيا القواميس، وأول من فرق في الأساس بين الحقيقة والمجاز.

الحافظ بن حجر ومخطوطته

هو الحافظ شهاب الدين أبو الفضل : أحمد بن علي بن محمد بن حجر، الكناني الشافعي العسقلاني، المعروف بابن حجر العسقلاني.

ولد بمصر سنة 773 هـ، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وطلب العلوم الدينية والعربية، حتى نبغ فيها.

اشتغل بعلوم الحديث في الديار الحجازية، والشامية، والمصرية.

وأخذ الحديث عن جلة العلماء، ولا سيما الحافظ العراقي. وتفقه على البلقيني، وابن الملقن، وغيرهما رحمهم الله. ودرس الأصلين على العز بن جماعة، وقرأ القراءات السبع عن التنوخي. وأخذ اللغة عن مجد الدين الفيروزابادي، واللغة العربية عن العماري، والأدب والعروض عن البدر البشتكي...

وأذن له أساتذته بالتدريس والافتاء.

وتصدى بعدئذ بعناية للحديث الشريف : مطالعة، وقراءة، وإقراء، وتصنيفا. ودرس التفسير، والفقه، وباشر الوعظ والخطابة، في الجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص وغيرهما.

وباشر القضاء في مصر إحدى وعشرين سنة. ولقب بقاضي القضاة، وأوحد الحفاظ.

ووفد إليه الفضلاء، ورؤوس العلماء، ليتزودوا من أدبه وفضله وعلمه.

وبلغت تآليفه مائة وخمسين مصنفا، معظمها في علوم الحديث الشريف، منها :

الاصابة في أسماء الصحابة، وتهذيب التهذيب، والتقريب، وتعجيل المنفعة، ومشتبه النسبة، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، وتلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، وتخريج المصابيح، وتخريج الكشاف، وابن الحاجب، واتحاف المهرة، والمقدمة، وبلوغ المرام، ونخبة الفكر وشرحها، والقول المسدد في الذبّ عن مسند الامام أحمد ...الخ

ومن أجلّ كتبه : فتح الباري في شرح صحيح البخاري، رضي الله عنه. الذي دلّ على ألمعيته وجلالة قدره... كتب مقدمته سنة 813 هـ، وبدأ تأليفه سنة 817 هـ، وانتهى منه في غرة رجب 842 هـ.

وله أيضا ديوان شعر، وديوان الخطبة، و« الغراس » الذي نحن بصدد تحقيقه.

وأملى من حفظه الشيء الكثير، وانتشرت كتبه في حياته، وتهاداها الملوك والأمراء.

وعاش حياته متواضعا، حليما، صابرا، كريما، صوّاما، متهجدا، ورعا، يجل المتقدمين، يحترم المتأخرين، دمثا في أخلاقه مع كل من يخالطه أو يجالسه، كريم النفس والخلق والمال.

كما كان ظريفا، فكها، مهضوم النفس، يميل إلى النكات اللطيفة، والنوادر الظريفة.

واستأثرت به رحمة الله تعالى، في ليلة الثامن عشر من ذي الحجة سنة 852 هـ. أجزل الله ثوابه، وأمطر عليه شآبيب رحمته ورضوانه، ونفع بعلمه، وجزاه عنا وعن الاسلام والمسلمين خير الجزاء.

مخطوط غراس الأساس

في دار الكتب المصرية نسختان مخطوطتان

بخطين مختلفين، من (غراس الأساس) للعلامة ابن حجر رحمه الله تعالى. سمعت عنهما منذ ثلاثين عاما خلت، حين أشار إلى ذلك الأستاذ المرحوم الشيخ أمين الخولي، في مقدمة لأساس الزمخشري، وكنت وقتها طالبا في كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف. وعلق الشيخ الخولي على الاشارة إلى الغراس بما رأى أن فيه تجاوزا أو مبالغة... علقت عليها في آخر هذا الكتاب المحقق. وشاء الله أن أصورهما ـــ حديثا ـــ تمهيدا للتحقيق في هذه الأيام. والنسختان في مكتبة طلعت بقسم المخطوطات تحت رقم 363 لغة بدار الكتب المصرية.

وأرسلت رسائل إلى أمهات المكتبات في العالم العربي وفيما وراء البحار، وجاءت معظم الردود يُفيد بأنهم لا يملكون المخطوطة، وما سمعوا بها.. ومن ثم اكتفيت بما حصلت عليه من دار الكتب المصرية، مستعينا في التحقيق بأساس البلاغة، ومستشيرا لأمهات القواميس العربية كالصحاح، والقاموس، والمعجم الوسيط... الخ، كما استأنست بالنسخة (ب) لتحقيق النسخة (أ).

والغراس يدلنا على رسوخ قدم ابن حجر في العربية، لأنه استدراك على علامة فحل هو الامام الزمخشري رحمه الله تعالى. وإن ذاعت شهرة ابن حجر في العلوم الدينية وبخاصة علوم الحديث الشريف... إلا أن الغراس علامة واضحة على تمكنه من العربية وعلومها، والبلاغة وفنونها. وكعالم فاضل أنصف الأساس، ووصفه بالنفاسة، واختيار الألفاظ المستعملة، والأمثال السائرة، وأنه كتاب حافل جامع كامل، امتاز على غيره ببيان الحقيقة من المجاز، وتجنب الاسهاب والايجاز.

وتعقُّب الغراس للأساس قام على أساس المجاز وحده : أي ما ذكر في الأساس بأنه وضع جزما على سبيل المجاز وهو ليس كذلك ؛ فإذا أهمل الغراس مادة كانت على الحقيقة لا المجاز، يقول ابن حجر : « فرأيت الاقتصار منه ـــ الأساس ـــ على ما جزم بأنه وضع على سبيل المجاز، مكتفيا بالكتب المصنفة في اللغة ؛ فإنها أوعب لها من هذا الأساس ؛ فمن لم يجد في هذ المختصر شيئا فليجزم بأنه وضع على سبيل الحقيقة، معتمدا على هذا الامام البليغ المطلع ».

وسبب جزم ابن حجر في أحكامه يرجع إلى اعتماده على الكتب اللغوية، التي حوت ووعت، كما أنه سلم بالاطلاع والبلاغة للزمخشري ؛ فابن حجر ليس مفتريا، والزمخشري ليس مقصرا.

فما اتفقا فيه على أنه مجاز يعلي من شأن العالمين الفاضلين الراسخين، ويعلى من شأن مؤلفيهما، ويزيدنا ثقة وإعجابا بعلمهما، وبالمادة نفسها ؛ للاتفاق على قدر كبير مشترك بينهما.

وما اختلفا فيه وانفرد به ابن حجر.. فهو استدراك لوجه الله تعالى، وإنصاف للحقيقة. ومحال أن يغض ذلك من قدر الزمخشري، لأنه من باب (جلّ من لا يسهو)، و (الكمال لله وحده)...

وعلماؤنا بصراء وأمناء وفضلاء في استدراكاتهم على بعضهم ؛ لأن عملهم كان حسبة لله تعالى ؛ فنقدهم بناء، والاستدراك لوجه نظر، او ذكر شيء لم يصل علمه إلى الآخرين، واحتاطوا للأمر بقولهم حينئذ : (أظنه، أو لا أحقه، أو لا أدري، أو الله أعلم. واعترضوا بأدب، كقولهم : وهو، زعم، وغاب عنه، وعندي، ولا أقول بذلك، وليس الأمر كما قال)...

كما لم يغمطوا حقا لمستحق، ولا فضلا لسابق، ولا رأيا لراء، وإنما ساقوا حججه، وفندوا بأدب أدلته، ودعوا له بخير، وصرحوا باستفادتهم من السابقين، واعترفوا بذلك تواضعا وأمانة. ومثل ذلك كان صنيع ابن حجر في هذا الكتاب (غراس

الأساس)، في استدراكاته على أساس الزمخشري رحمهما الله تعالى.

* * *

منهج الغراس

رتب الامام ابن حجر (غراس الأساس) ترتيبا أبجديا في مواده ؛ كما هو الشأن السائد في عصره، وكما هي طريقة الأساس، حتى يسهل الانتفاع به. وقد وضح ذلك بقوله : « وطريقتي فيه : أن أذكر بعد كل حرف مفرد ما يثنيه، وأسلك طريق الترتيب، حتى فيما يثلثه ويربّعه : فأترجم مثلا : « الباء »، ثم أقول : (با)، فأورد ما أوله (با)، ثم أنتقل إلى (بب)، وهلم جرا. وأراعي الترتيب بما ذكرت : فأقدم (باب) على (باس) وكذا أصنع في كل حرف، طلبا للايجاز، ورغبة في النجاز ».

وللامام ابن حجر شخصيته المتميزة في الغراس ؛ فهو أصيل في كتابه، وليس كلا على الأساس :

فهو وإن اعتمد على الأساس إلا أنه يتأنق في شرح العبارة بأسلوبه، ولا ينقل حرفيا إلا لماما من عبارات الأساس حين يستحسن التعبير أو الطرفة، فيسوقها كشاهد ودليل صادف محله.

ولاعتماده على كتب اللغة ــ كما أشار في مقدمته ــ زاد ــ أحيانا ــ في الشرح، وذكر فروع المادة، لبيان المعنى، وتوضيح المقام، كما في مادة (ب ص ص)، و (دغم) كما يتوسط أحيانا في الشرح ويكتفي به إن وضح المقام، أو يوجز إيجازا غير مخل، كما في مادة (رجع، ورفو، ودعجاء، ودمل...).

ويعرض عن الاستشهاد بالقراءات الشاذة، كما في قراءة ابن الزبير، لقوله تعالى : « ولأرقصوا خلالكم »، بدلا من « ولأوضعوا خلالكم »، كما في الأساس ص 245.

ويترك ما يجر إلى خلافات المتكلمين، مثل « جاء ربُّك »، في مجاز (جيأ).

ولا يصرح بذكر الأشخاص فيما يوهم اللمز، كما ذكر الأساس في مادة (رقط) أن عبيد الله بن زياد كان أرقط شديد الرقطة.

ويمسك عن ذكر الاستشهاد بما يوهم الجرح أو الحرج، ورعا وتقى، كما في مادة (جثم) وبيت النابغة (الأساس 153)، وحكاية أبي الدقيش حين زواجه من الجارية (الأساس 249)، في مادة (ركض).

واتفق مع الزمخشري في كثرة كاثرة من المواد على الحقيقة والمجاز، وتلك علامة صحة للكتابين : (الأساس والغراس)، وآية فقه وعلم للامامين، كما ذكرنا.

واختلف معه فيما جاء في الأساس على أنه حقيقة، واعتبره صاحب الغراس مجازا، حين استشار أمهات الكتب اللغوية، مثل المواد : (إخوان، وأف، وأفق، وأهل، وبتر، وبشّ، ودحو، ودد، ودرق، وداخ، وربت، ورمن) في أبواب الألف والباء، والدال والراء، مثلا.

كما اختلف معه فيما جاء في الأساس مستعملا على سبيل المجاز، واعتبره الغراس حقيقة، مثل :

(برطل، وبرّه، وبزّ، ودسر، ودغدغ، وذرف، ورأل، ورغف، وركو، ورمس، ورمع، ورهيأ) مثلا في باب الباء، والدال، والذال، والراء، فقط.

وسنذكر في آخر الكتاب إحصائية بما اتفق عليه الامامان بأنه من باب الحقيقة لا المجاز.. وماخالف فيه الغراسُ الأساسَ في أنه من باب الحقيقة أو المجاز، إن شاء الله تعالى.

علمي في التحقيق

بدأت في نسخ النسخة (أ) على أسس إملائية حديثة، وذكرت المادة في أول السطر بين قوسين. واحترمت النص فلم أتدخل إلا بإضافة يسيرة إذا كانت ضرورية، توضيحا للمعنى، أو إتماما للجملة، أو سقطا... وجعلت ذلك بين معقوفتين، أما ما كان من تعليق، أو شرح كلمة بها غموض، أو تنبيها على تحريف أو تصحيف، أو بتر، أو طمس.. فجعلت ذلك في الهامش برقمه، ومنبها بالتالي على الاختلاف بين المتن، وبين مارجعت إليه من مراجع، كالأساس، أو النسخة (ب)، أو القواميس الأخرى، وفي مقدمتها : الصحاح، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط. وبذلت كل وسعي — علم الله — في تشكيل الكتاب كله تشكيلا كاملا، فأخذ جهدا مضنيا، وآمل أن يفيد في شكله الجديد، وأن يخلو من الأخطاء، وجل من لا يسهو..

* * *

نسختا الغراس.. نسخهما ووصفهما :

ما عثر عليه من هاتين المخطوطتين كان بخطين مختلفين، كم ذكرنا. ويظهر أنهما منقولتان عن أصل واحد ؛ لأن مايكون في إحداهما من تحريف أو تصحيف (1) فإننا نجده — غالبا — في الأخرى. وذكر الناسخان أنهما نقلا عن خط المؤلف.

وعند الدراسة وجدت أن إحدى النسختين أفضل من الأخرى مع رداءة خطها ؛ لأنها خلت من السقط، ويمكن قراءتها لوضوحها، فرمزت لها بحرف (أ)، واعتمدتها أساسا للتحقيق. ورمزت للثانية بحرف (ب) واستأنست بها في التصحيح مع القواميس اللغوية.

وعنوان النسختين يؤكد أن الكتاب منسوب للامام ابن حجر العسقلاني، لا لغيره، كما يؤكد عنوانهما (2).

والناسخ للنسخة (أ) هو العبد الضعيف : محمد بن عبد اللطيف الحنبلي، غفر الله تعالى له، ولوالديه، ولمشايخه، ولجميع المسلمين. وفرغ من النسخ في شهر جمادى الآخرة سنة 1147، نهار الجمعة المبارك.

أما النسخة (ب) فناسخها هو الفقير الحقير، الراجي عفو ربه القدير : محمد بن القاضي عمر، الشافعي مذهبا، الدويكي نسبا، غفر الله له ولوالديه آمين. وذكر أنه فرغ من الكتابة نهار السبت 27 من شعبان المبارك، ولم يذكر السنة.

وهذه النسخة بخط مغربي أوضح من (أ) ولكن فيها سقط كثير، ومن ثم اتخذتها استئناسا ؛ لتصحيح (أ) مع القواميس المطبوعة.

والمخطوطة (أ) تقع في خمس وتسعين لوحة، كل لوحة فيها صفحتان، ومسطرتها 16 × 9 سم، وكل صفحة تحتوي على تسعة وعشرين سطرا، وفي كل سطر حوالي إحدى عشرة كلمة.

* * *

كلمة بإيجاز عن الحقيقة والمجاز :

فضل علماؤنا — رحمهم الله — القول في

(1) التحريف : تغير في معنى الكلمة، بسبب التغيير في شكل رسم الحرف، كرسم الراء دالا، أو جعل النون زايا عند عدم استدارة النون، فتكتب (عجن) عجز مثلا. والتصحيف : هو التغيير في الكلمة بسبب نقط الحروف المتشابهة، كالباء، والتاء، والثاء، والسين، والشين، والطاء، والظاء...

(2) ومخطوطة غراس الأساس بذلك من أعلى النصوص المخطوطة، لحملها عنوان الكتاب، واسم المؤلف، وجميع مادة الكتاب وختامه، كما ورد في رسالة « تراثنا المخطوط » للدكتور علي الخطيب، نقلا عن شيخ المحققين الأستاذ عبد السلام هارون، أمد الله في حياته، وجزاه عن العربية والاسلام خير الجزاء.

الوضع، وأفردوا له كتبا [3]، وإيجاز موجز ماقالوه في ذلك :

أن الوضع جعل دليلا على المعنى، فيفهمه منه العارف بوضعه له. أو هو تخصيص الشيء بالشيء : بحيث إذا أطلق الأول فهم منه الثاني، بشرط القصد.

والأرجح : أن العرب وضعت المفردات لا المركبات.

والأظهر : أن اللفظ موضوع بإزاء المعنى من حيث هو، بقطع النظر عن كونه ذهنيا أو خارجيا، وحصول المعنى في الخارج والذهن من الأوصاف الزائدة.

وأن اللغة لم توضع كلها في وقت واحد، بل وقعت متتابعة متلاحقة.

وقال بعض العلماء إن ألفاظ اللغة كلها من الحقيقة، وقال آخرون : بل كلها مجاز. والحق مع الفريق الثالث القائل : بأن بعض الألفاظ من باب الحقيقة، والبعض الآخر من المجاز.

والأصل في اللفظ : أن يستقر على حاله الأول، مالم يدع داع إلى أن يترك ويتحول عنه، كما يقول العلامة ابن جني رحمه الله [4].

وقد تنسى خطوات النقل أو تحفظ، وقد يهمل المعنى الأصلي أو يبقى أو يذهب في زوايا النسيان : فكلمة (النسخ) كانت كما تذكر القواميس لمشتار العسل، ونقلت لنسخ الشمس للظل، ثم نقلت للمعنى الشرعي بعدئذ للنسخ.

والنحاة هم أصحاب الفضل الأول في نشأة البلاغة... كانت في البداية نظرات متناثرة ضمن مباحثهم النحوية، ثم أتيح لمن أعقبهم أن يصوغ من هذه النظرات العابرة قواعد بلاغية، ذات صبغة علمية [5].

والعلوم اللغوية تمازجت في القرون الأولى، وجمعت كتب التراجم والطبقات بين النحويين واللغويين، كطبقات النحويين للزبيدي، وطبقات النحويين واللغويين لابن قاضي شهبة، وإنباه الرواة للقفطي... وكان للغويين أثر بارز في مد تيار البلاغة بينابيع من دراسة اللغة، وكان تعليم اللغة، وشرح مفرداتها، وبيان مقاييس الاشتقاق والاعراب، وبيان خصائص الأسلوب... كشيء واحد متكامل مترابط، وإنما جاء الفصل تسهيلا على المتعلمين، والشداة.

ولابن جني كلام موجز عن الحقيقة والمجاز، فالحقيقة عنده : ما أقر في الاستعمال على أصل الوضع في اللغة. والمجاز ما كان بضد ذلك : أي استعمال اللفظ في غير ما وضع له في اللغة.

وعنده : أن المجاز يعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي :

الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة. فمن ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام في الفرس : « هو بحر » ؛ فالمعاني الثلاثة موجودة فيه : فقد زاد في أسماء الفرس (البحر) وهذا من الاتساع، ولان جريه يجري في الكثرة مجرى مائه، وهذا هو التشبيه. وأما التوكيد ؛ فلأنه شبه العرض بالجوهر [6] وذكر ابن الأثير : أن واحدا من الثلاثة كاف في المجاز.

فبلاغة المجاز — ترجع إلى توكيد المعنى،

(3) لمزيد بيان راجع المزهر 38/1، والخصائص 428/1، وخلاصة الوضع للشيخ يوسف الدجوي، وكتابنا : المشترك اللغوي : نظرية وتطبيقا، ص 46، ط. مكتبة وهبة بالقاهرة.

(4) الخصائص 457/2

(5) مقدمة أثر النحاة في البحث البلاغي د. عبد القادر حسين

(6) الخصائص 446/2.

وإلباسه ثوب المبالغة المقبولة، مع إبرازه في صورة محسوسة، ثم التعبير عنه بألفاظ موجزة.

ويذكر ابن جني أن للمجاز أبلغية عن الحقيقة، وذكر قوله تعالى : « واسأل القرية » (7). كمثال لذلك : ففيه الاتساع لاستعمال لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤاله. وفيه التشبيه ؛ لأنها شبهت بمن يصح سؤاله، وأما التوكيد، ففيه إحالة لابيهم يعقوب بأن عليه أن يصدقهم ؛ لان الجواب من عادتهم كبشر، ولو سأل الجمادات لأصدقته الخبر (8). فمن حقه أن يصدقهم فيما ادعوه.

ويقول ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ عن مجال المجاز والتأويل، في فوائده البديعة :

« المجاز والتأويل لا يدخل في المنصوص، وإنما يدخل في الظاهر المحتمل له. وهنا نكتة ينبغي التفطن لها، وهي : أن كون اللفظ نصا يعرف بشيئين :

أحدهما : عدم احتماله لغير معناه وضعا، كالعشرة.

والثاني : ما اطَّرَدَ استعماله على طريقة واحدة في جميع موارده ؛ فإنه نص في معناه، لا يقبل تأويلا ولا مجازا، وإن قد تطرق ذلك إلى بعض أفراده وصار هذا بمنزلة خبر المتواتر، لا يتطرق احتمال الكذب إليه، وإن تطرق إلى كل واحد بمفرده.

وهذه عصمة نافعة تدلك على خطأ كثير من التأويلات السمعيات التي اطرد استعمالها في ظاهرها وتأويلها والحالة هذه غلط ؛ فإن التأويل إنما يكون لظاهر قد ورد شاذا مخالفا لغيره ومن السمعيات ؛ فيحتاج إلى تأويله لتوافقها.

فأما إذا اطردت كلها على وتيرة واحدة صارت بمنزلة النص وأقوى، وتأويلها ممتنع، فتأمل هذا » (9)

وابن فارس يرى أن أكثر اللغة حقيقة لا مجاز (10). بينما يذكر ابن جني أن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة (11). ولا طائل من مناقشة الرأيين، فحسبنا أن قدرا مشتركا بين علماء اللغة والبلاغة قد استقر على أن من اللفظ ما هو حقيقة، ومنه ما هو مجاز. والفيصل في ذلك الاستعمال، وتتبع التاريخ الاستعمالي للفظة، وما ذكره علماؤنا الأجلاء، حتى لا نشكك في عملهم، ولا نحط من قدر ما تركوه لنا من كتب وقواميس، إبتغاء وجه الله تعالى، وإعلاء للحضارة الانسانية التي جاء بها الاسلام، وجزى الله الخير إمامنا الزمخشري على سبقه في هذا المضمار، وجزى الله الخير ابن حجر، في استدراكه وتوثيقه لقاموس الزمخشري.

ونحن بحاجة إلى المجاز ؛ لأنه وجه جمالي وكمالي للغة العربية، وتفنن في القول، وضبط للقاعدة والرأي. وأبو عبيدة (ت 210 هـ) يرى أن المجاز أحيانا يأتي بمعنى التفسير : أي ايضاح الغامض، أو تأويل المشكل، أو بيان الغريب (12). والطور الدلالي للفظ سبق قطعا وعقلا الطور الجمالي في البلاغة.

* * *

ولتحديد دلالة الألفاظ في العربية أثره وخطره، إذ (تتوقف كثير من القضايا في الحياة على فهم النصوص فهما صحيحا دقيقا : ففي ميدان

(7) يوسف : 82.
(8) الخصائص 447/2 بتصرف.
(9) بدائع الفوائد لابن القيم 15/1.
(10) الصاحبي 167.
(11) الخصائص 447/2.
(12) أثر النحاة في البحث البلاغي د. عبد القادر حسين ص 346.

الحقوق والقانون مجال كبير للاختلاف على دلالة الألفاظ في المعاهدات الدولية، والاتفاقات التجارية والمعاملات الاقتصادية. وفي ميدان الدين وخاصة الفقه الاسلامي تحتل النصوص موقعا خاصا، ويتعلق على فهمها تحديد الأفكار في العقائد والأحكام في قضايا المعاملات والعبادات، ويقع لذلك الاختلاف في فهم مراد الشارع، وتحديد معاني الألفاظ في القرآن الكريم والحديث الشريف) (13). أقول : وفضلا عن ذلك تذوق الكمال الجمالي، واتساع فنون القول...

والباحث في القواميس العربية، وأمهات كتب الأدب يحس ويلمس ـــ أحيانا كثيرة ـــ التعبير الحقيقي والمجازي.. إلا أن الفضل للامام الزمخشري في الفصل بينهما في الألفاظ الشائعة والمستعملة في قاموس القيم. والأسلوب الأدبي في العبارات القاموسية عند ابن حجر، شهادة له بطول الباع في اللغة والأدب بجانب علوم الدين.

وبهذا العرض الموجز تحت هذا العنوان نلمح جهد الامامين الفاضلين : الزمخشري وابن حجر في خدمة العربية لغة الضاد، والقرآن الكريم، وبالتالي ندرك أهمية تحقيق هذه المخطوطة القيمة : (غراس الأساس) التي هي ذخيرة نفيسة من ذخائر تراثنا العظيم.

* * *

إشارات مجازية لم تتبلور عند السابقين قاموسيا :

وإنصافا للحقيقة، فإننا حين نراجع أمهات اللغة وقواميسها، وماكتب في أصول اللغة، نجد المجاز مبثوثا بين ثناياها في إشارات ووضوح، ولعل هذه الاشارات كانت السبب في كتب البلاغة وتأليفها في مواضيع تكاملت بعدئذ، كالسؤال عن قوله تعالى : « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشياطِين »وكان سببا في بحث باب التشبيه.

وكلنا نهتز للمعنى الرائق الأدبي، حين نسمع التعبير الجمالي، أو نعثر على طرفة أدبية تعلق بالقلب والعقل.

ومع إشارات الكتب المعنية إلى المجاز قبل الزمخشري إلا إننا لم نجد من فصل هذا عن ذاك بطريقة واضحة للتمكين من المادة واللغة، وصحيحة وفاصلة حين استقرت أزمانا، ودرج عليها العلماء من غير نكير، فكأنها إجماع لغوي.

وصلة البلاغة، والعلوم اللغوية، وأصول اللغة بغيرها من المواد، لا ينكرها عالم أو متعلم، فكلها مجال وحقل متداخل لا يفهم بعمق إلا إذا مسّ بعضها وتداخل معه. ومن ثم وجدنا العالم باللغة يتشابك مع العالم بالشريعة، ويكمل بعضها الآخر، وكان القراء من أعلم الناس باللغة وعلومها وأصولها، كما ذكرنا ذلك في كتابنا : (المشترك اللغوي).

ولا ينكر أي عالم فضل ابن فارس اللغوي حين ينفذ إلى أصل المعنى اللغوي في تحديداته، وحين يرجع أصل اللفظة إلى أصل أو أصول، تتشابك مع بعضها كشجرة مغصنة مورقة، حلت كثيرا من مشاكل اختلاف معاني اللفظة الواحدة في الاشتراك اللفظي أو المعنوي، وقد أشرنا لـذلك في كتاباتنا (14). ففضل ابن فارس وغيره في هذا المجال مذكور غير منكور.

وقد ينكر منكر على ابن فارس ذلك في معجميه القيمين ارجاع المادة لأكثر من أصلين، ولكن النفس تميل إلى تصديقه، وإلا كيف نحل مشكل كلمة « عرف » في قوله تعالى عن

(13) فقه اللغة للمبارك ص 134.

(14) راجع كتابنا : « أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية ». أو كتابنا « طرق تنمية اللغة العربية » ـــ ط. مكتبة وهبة ـــ بالقاهرة.

الصالحين : « وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ »، فقد قال فيها المفسرون : عرف هنا من المعرفة : أي أنهم يعرفون طريق الجنة وحدهم لصالحهم وإلهامهم. وقال بعضهم : بل عرفها من عرف الطيب والرائحة، لأن الجنة يشم رائحتها الصالحون من مسيرة أعوام، كما ذكر ذلك حديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

وما جاء في كتب علماء اللغة، ومرويات الأدب، والقواميس اللغوية فيه الشيء الكثير للمتتبع عن الحقيقة والمجاز... فإذا جاء الزمخشري وصار فارسها المرجب.. فله الفضل والسبق، والتقدير والشكر. وإذا جاء ابن حجر في هذه المخطوطة يستدرك عليه، فيرفع ذلك من قدر الزمخشري « وأساسه » فيما اتفقا فيه ويعلي من شأن ابن حجر بالتالي وعلو كعبه بالتالي فيما اختلفا فيه في باب المجاز.

ولست أهلا بعلمي المتواضع، وجهدي الفردي، لأن أقوم بتتبع حياة الألفاظ واستعمالاتها، وعمل أطالس لغوية، وكتابة تاريخ حياة واستعمال، وتحرك اللفظة في حاليها : الكمال والاستعمال، وبالتالي الجمال ؛ وإنما يحتاج ذلك لتكاثف علماء وجهود مجامع لأن الأصل الجامع للفظة (الحقيقة اللغوية) إنما يستنبطه العقل استنباطا من جميع دلالات اللفظ، والمعنى الذي لا يتخلف عن أي دلالة هو المعنى الجامع. ولمعرفة الخطوات في هذا الصدد نريد تحديدا للمفاهيم أولا. وإنما يعرف ذلك من كتب وعلوم اللغة المعتبرة، وعلم الوضع، وتتبع الاستعمال، وتناصر مجامع وجهود علماء.

ولنأخذ مثالا لكلمة « فن »[15]، ونرى استعمالاتها ومعانيها في ظل تنوع الاستعمال حقيقة ومجازا في ايجاز، كما تحكي القواميس واللغويون :

فلفظ (الفن) : اسم لكل ضرب من الضروب، في المعنى الوضعي. وكل من يتوسع في شيء ويتصرف في ضروبه يقال : إنه افتنّ، والاسم منه (مفن) وكل مشتق معنوي بعد هذا من المعنى الأولي يدل على المعنى تضمنا أو التزاما، مثل :
(التّفنين) وهو بلى الثوب بلا تشقق، وقد نقل هذا الأزهري عن الليث.

(والفنن) اسم للغصن المستقيم في الشجرة، وجمعها أفنان. وتكون أيضا بمعنى الألوان إذا كانت جمعا لفن. وهل يفسر قوله تعالى : « ذواتا أفنان » بظل الأغصان على الحيطان، كما فسره عكرمة رضي الله عنه. ويمكن أن يفسر بالأغصان ؛ لأن الأغصان ضرب من ضروب الشجرة، وهذا مجاز مباشر. والتفسير الأول أقرب لأنه يفسر بالحقيقة دون المجاز. وخصل الشعر والجمم تسمى أفانين.

وجاء في حديث أهل الجنة : « مرد مكحلون أولو أفانين ». فمن جعل وجه المجاز تشبيه الخصلة بالغصن — كالأزهري — فقد جعل الاشتقاق مجازا بالواسطة، فيقال : الخصلة تسمى فننا ؛ لأنها من ضروب الشجرة، ولاوجه أن يقال : الخصلة فنن ؛ لأنها من ضروب الشعر، وهذا هو المجاز المباشر.

وأخذوا من المجاز التخصيصي صيغة مبالغة من الفنن هي (فينان)، صفة للشعر الطويل الحسن. والمرأة الكبيرة السيئة الخلق توصف بأنها (مفننة)، وكذلك الرجل الذي هذه صفته، وهذا مجاز بالتخصيص ؛ لأنه مقصور على تفننها في سوء الخلق. أما تقييد ذلك بكبر السن ؛ فلأن كبر السن مظنة للتخريف والاتيان بضروب منه. ولذا سميت العجوز أفنونا — بضم الهمزة — والأفنون أيضا صفة للحية، للونها، أو جريها، أو لدغها.

(15) لمزيد بيان في هذا الصدد راجع : القواميس العربية المعتبرة، وكتب اللغة، وبحث للأستاذ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في كتابه : اللغة العربية بين القاعد والمثال. ط نادي القصيم 1401 هـ.

وعلى كل فلابد من عودة المجاز إلى ضرب من الضروب، والدليل على ذلك أن الغصن الملتف يسمى أفنونا ؛ لأن التفافه أعطى ضروبا. وكذلك الجري المختلط من جري الفرس والناقة يسمى أفنونا ؛ لأنه أعطى ضروبا من الجري.

والفنة : اسم للطرف من الدهر ؛ لأنها ضرب منه. ووجه المجاز : أنهم سموا الشيء بصفة من صفاته.

والفن : العناء، ويقال : فننت الرجل إذا عنيته ؛ لأنه أحوجه إلى ضروب العناء، هذا وجه المجاز.

والمطل : (فن) ؛ لأنه من ضروب العناء، وكذلك الطرد والغبن.

وفنفن الرجل بمعنى فرق إبله كسلا وتوانيا، ولهذا الاستعمال مجازان : في أن التفريق يعطي ضروبا، وتخصيص ذلك بالعجز والتواني. والتخليط يسمى تفنينا : لأنه ضروب.

والمِفنّ : رجل يأتي بالعجائب ؛ لأن العجائب ضروب.

والفنان : الحمار الوحشي ؛ لأنه يأتي بضروب من العدو، أو لأن أقلام جسمه ذات ألوان.

والتزيين فن ؛ لأنه يعتمد على الضروب. والعجوز المسترخية أفنون ؛ لأن الاسترخاء ضروب من التجاعيد. والداهية أفنون ؛ لأن الدهاء ضروب من الحيلة والحذق.

والأفنون : أول السحاب والشباب لأنه أول ضروبهما.

هذا موجز في الاشتقاق المعنوي لهذه المادة (فن)، وهكذا ترد كل معنى إلى أصله ؛ لأن الفن ضرب من الضروب.

ويمكن التأريخ لبعض المعاني المجازية : فما كان مجازا بالواسطة فهو استعمال متأخر. وما كان قريبا منها إلى الأصل في الاستعمال القديم فهو الاستعمال السابق، وهذا يحوج للفصل بين الحقيقة والمجاز بجهد خلاق تسهيلا للعلم والتعليم.

وهذا أمر يحوج إلى تأمل وطول نظر وبصر باللغة كما رأيت في هذه المادة.. فمن مجاز الزمخشري في أساسه، وتصحيح ابن حجر في غراسه ندرك جهدهما وفضلهما وقيمة مؤلفيهما، جزاهم الله الخير، ودافع لخدمة لغة الضاد : لغة الوحي ووعائه.

وبعد، فإن مخطوطاتنا ـــ بعامة ـــ بحاجة إلى عناية ورعاية، كي ترى النور مصونة، وتضيف إلى أمجادنا وأمجادا أخرى، وتضع في صرح الحضارة الانسانية لبنات تعلي من بنيانه، وتعلي من قيمته وشأنه.

وما جهدي المتواضع إلا خطوة على الدرب، وشمعة على الطريق في هذا الجانب.
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *